رابعًا: آفاق الحرية

١- لماذا تأخرت قضية الحرية؟

٢- غرائب التعذيب فى سجن أبو غريب.

٣- هل يسقط اليمين بعد صعوده؟

٤- ما الذى يمنع من حرية التفكير؟

٥- المواطن المشبوه.

٦- ستالينجراد العرب.

٧- حرية الفنان، وتقليدية المتلقى.

١- لماذا تأخرت قضية الحرية (*)

اتضح فى الآونة الأخيرة أن قضية حرية الفرد وديموقراطية الحكم هى القضية المحورية الآن التى تناضل من أجلها الشعوب. وربما كان سبب كثير من أحزان العرب هو أنهم يعانون جميعًا من أزمة الحرية والديموقراطية فى حياتهم الاجتماعية والسياسية. بل لقد احتلت العراق ومن قبلها أفغانستان بذريعة القضاء على مجتمعات القهر والتخلف والإرهاب وحكم الفرد الواحد أو الجماعة أو الطائفة أو العشيرة.

وانزوت أنظمة الحكم وهى محاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة الولايات المتحدة التى تهدد بتكرار النموذج العراقى الأفغانستانى فى سوريا ولبنان وإيران وليبيا واليمن والسودان من أجل حصار مصر وتهميشها وقص أجنحة الشقيقة الكبرى التى تركت باقى الشقيقات تقع واحدة تلو الأخرى فى فم الثعبان الأعظم، وسندان الشعوب الغاضبة المجروحة الكرامة، والمحبطة العزيمة، وبركان الغضب على الأبواب. فهى مضطرة لأن تعطى هامشًا أكبر من الحريات للشعوب وفى الوقت نفسه قد تكون هى الضحية لما أعطته بيديها.

كانت حرية الفرد وديموقراطية الحكم أحد مطالب المعارضة السياسية الوطنية منذ إنشاء الدول الوطنية. وأصبحت هى أيضًا فى مأزق. فإذا استمرت فى النضال من أجل هذا الهدف قد تتهم بأنها تعمل فى إطار البرنامج الأمريكى لتحديث أنظمة الحكم فى الوطن العربى والعالم الإسلامى. فتوقف النضال فى الداخل مؤقتًا بعد أن اختلطت الأوراق. وأصبح البند الأول فى برامج المعارضة طرد المحتل الأجنبى من العراق وأفغانستان وفلسطين. وتم تأجيل قضية الحرية والديموقراطية من جديد إلى ما بعد الاستقلال كما كان الحال فى الخمسينيات والستينيات.

(*) جريدة الاتحاد: ١١ أكتوبر ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٩ أكتوبر ٢٠٠٣م.

لقد تم تأجيلها مرتين. الأولى فى مرحلة مقاومة الاستعمار. فقد أجل المواطن العربى قضيته مع النظام فى الداخل حتى يجند نفسه لمقاومة الاستعمار فى الخارج. لذلك وضع الأفغانى شعار «الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل»، معطيًا الأولوية للخارج على الداخل، وطبقا للمثل الشعبى «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». فالمعركة الكبرى كانت مع الاحتلال من أجل نيل الاستقلال. وهو نفس الشعار الذى رفعه عبد الناصر: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». وهو توجه قرآنى صريح ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ويتكرر الأمر بعدة صيغ مثل: الأولوية للتناقض الرئيسى على التناقض الثانوى. وقد خرج الشيوعيون والإخوان فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦م من السجون، وسلّحهم عبد الناصر دفاعا عن بورسعيد. وبعد انسحاب العدوان فى ديسمبر دخلوا السجون ثانية. تكاتف الحكم والمعارضة لدرء العدوان. فالتناقض بين الوطن والعدوان تناقض رئيسى فى حين أن التناقض بين عبد الناصر من ناحية والإخوان والشيوعيين من ناحية أخرى تناقض ثانوى. وبعد أن قام عبد الناصر بعمليات التحول الاشتراكى فى قوانين يوليو الاشتراكية عامى ١٩٦٢، ١٩٦٣م انضم إليه الشيوعيون. وظل الإخوان داخل السجون. ثم تم إخراجهم منها فى ١٩٧١م لتصفية الناصرية. أعطيت الحرية أولاً لليسار فى الستينيات ضد اليمين، ثم فى السبعينيات إلى اليمين ضد اليسار. وأجلت قضية الحرية لجميع المواطنين بكافة مدارسهم الفكرية وتياراتهم السياسية حتى الآن. وكانت هزيمة يونيو - حزيران عام ١٩٦٧م نتيجة لانتقاص الحرية العامة، وشمولية الحكم فى الجمهورية الأولى. وكانت زيارة القدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧م، واتفاقيات كامب ديفيد فى عام ١٩٧٨م، واتفاقيات السلام فى ١٩٧٩م نتيجة لانتقاص الحريات والصلح المنفرد ودون طرح موضوع الحرب والسلام للنقاش على الصعيد الوطنى فى الجمهورية الثانية. وتوقفت مصر عن الحركة، وأصيبت بالشلل التام. وازدادت تبعية للخارج، وقهراً للداخل. وعزّ الخيال السياسى، فتوقفت عن الحركة أو تحركت فى المكان «محلك سر» خشية من المغامرة، وعقدة يونيو - حزيران عام١٩٦٧م التى لم يحلها انتصار أكتوبر عام ١٩٧٣م. وانفرط عقد العرب بعد حرب الخليج الأولى فى عام ١٩٨٠م، وحرب الخليج الثانية فى عام ١٩٩٠م. وتركت الانتفاضة الأولى انتفاضة الحجارة بمفردها فى

١٩٨٧م، والثانية أيضا، انتفاضة الأقصى فى عام ٢٠٠٠ م بمفردها. وسقط العراق تحت أقدام جنود الاحتلال فى مارس عام ٢٠٠٣م. كل ذلك تحت شعار «حرب أكتوبر آخر الحروب» وذلك أثناء الجمهورية الثالثة.

بعد التخلص من الاحتلال بدأت قضية بناء الدولة الوطنية المستقلة التى تمت وراثتها من الاستعمار بكل مخلفاته. وبطبيعة الحال تم تسليم رئاستها لقادة التحرر الوطنى الذين انشغلوا بالإنجازات السريعة والعاجلة مثل: الإصلاح الزراعى لتحرير الفلاح والأرض من الإقطاع، والتصنيع لمضاعفة الدخل القومى، والتأميم من أجل استرداد رأس المال الوطنى من الشركات الأجنبية، وتكوين ركيزة القطاع العام لتوفير الحاجات الأساسية للمواطنين، ودعم المواد الغذائية وبخاصة الخبز لغير القادرين، وإقرار مجانية التعليم، وتسليح الجيش الوطنى، وتكوين جبهة عريضة معادية للاستعمار فى عصر الاستقطاب باسم القومية العربية أو دول العالم الثالث أو عدم الانحياز أو تضامن شعوب آسيا وأفريقيا. وبعد عقدين أو ثلاثة من الزمان فشلت عمليات التحديث، واغتنت الطبقة المتوسطة. وتضخمت الرأسمالية الوطنية. وبعد الانفتاح الاقتصادى، وخصخصة القطاع العام، ازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً. وتم تهريب ما يعادل الدخل القومى إلى الخارج من نواب القروض. وانتشر الفساد، وعمت الرشوة. وازدادت الدولة تبعية للخارج فى الغذاء والسلاح، وتفاقمت الديون العسكرية والمدنية. وأصبح العامل الخارجى له الأولوية على العامل الداخلى فى صياغة السياسة الوطنية. ولم يعد ولاء المواطن للدولة لا فى إعلامها ولا تعليمها ولا خدماتها ولا أجورها بل أصبح الولاء للخارج، للقنوات الفضائية فى الأخبار، وللتعليم الخاص من رياض الأطفال حتى الجامعات الخاصة. يهاجر إلى مناطق الرزق فى الخليج هجرة مؤقتة أو دائمة فى أستراليا وكندا وأمريكا وأوروبا. تحول الوطن لديه إلى مجموعة من ذكريات الطفولة وزمن الشقاء. لم يستطع أن يمارس العمل الوطنى فى الداخل فآثر الابتعاد ليرى الوطن عن بعد. وظل يؤجل قضية الحريات ليحلها الزمن والتاريخ.

وبعد ما يقرب من نصف قرن تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال. ولم يعد العرب يعيشون فى عصرهم الرومانسى فى الخمسينيات والستينيات يبشرون ببزوغ قوة جديدة فى العالم، لها الأغلبية فى مقاعد الأمم المتحدة. انتهى عصر الاستقطاب. وبدأ العالم

ذو القطب الواحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية والتى تفرض شروطها على العالم. وتمهد لعصر الهيمنة الأمريكية بمجموعة من المفاهيم التى تكون أيديولوچية العصر مثل: العولمة، نهاية التاريخ، صراع الحضارات، العالم قرية واحدة، ثورة الاتصالات. وعلى الشعوب الأخرى أن تحدّث نفسها، وتسقط حدود الدول الوطنية لإفساح المجال لقوانين السوق، وتسرع فى عمليات التحول الديموقراطى، وتقوّى المجتمع المدنى الذى طغت عليه الدولة، وتحل قضية الأقليات، وتنظف ملفات حقوق الإنسان، وتساهم فى رفع شأن المرأة. ويعود العرب أحوج إلى حركة تحرير عربية ثانية لمقاومة العالم ذى القطب الواحد، دفاعا عن مكتسبات الدولة الوطنية، وحماية لاستقلالها. والخوف كل الخوف أن تتأجل قضية الحرية والديموقراطية مرة ثانية كما تأجلت مرتين قبل ذلك. وتظل فى آخر الأولويات.

فإلى أى حد يقبل العرب أن تتكرر التجارب دون أن يتعلموا منها، وتؤجل قضية الحرية والديموقراطية إلى حين؟ فالعاجل له الأولوية على الآجل، طالما وضع العرب اختيار حرية الوطن قبل حرية المواطن. ومازال الاختيار قائما بالنسبة لفلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان. والسؤال هو: متى يُعاد الاختيار على الأقل بوصفه بديلاً افتراضيّا، حرية المواطن مع حرية الوطن. وقد قامت الثورة الاشتراكية فى روسيا فى ١٩١٧ فى الداخل، وهى تقاوم العدوان النازى فى الخارج. حرية المواطن هى الطريق لحرية الوطن حتى يعود الولاء للأوطان ويعبر عن اختيار المواطنين. والحرية واحدة لا تتجزأ، حرية الداخل وحرية الخارج. والعدو واحد لا يتجزأ، عدو فى الداخل، وعدو فى الخارج. والعبد لا يحارب إلا إذا كانت الحرية هى الدافع على القتال مثل عنترة بن شداد.

ولا تحل قضية الحرية والديموقراطية فقط عن طريق الانتخابات الحرة والتعددية السياسية، وحرية تكوين الأحزاب، وتداول السلطة، والدستور، والحكومة المسئولة أمام البرلمان، وحرية الصحافة والرقابة على أجهزة الدولة ولكن أيضا عن طريق نزع جذور التسلط والقهر من الوجدان العربى المعاصر الذى ترسبت فيه ثقافة السلطان عبر التاريخ، ثقافة المجتمع البطرياركى، مجتمع «سى السيد». الأولوية فيه للحاكم على المحكوم، وللحزب الحاكم على المعارضة، نظام الفرقة الناجية التى تحكم وتكفّر فرق

المعارضة التى فى النار. يحتاج العرب إلى الثقافة البديلة، ثقافة الحرية والمراقبة على الحكام، ثقافة الحسبة والرقابة على أجهزة الدولة. ليست القضية تجميل وجه أنظمة الحكم بإلغاء الأحكام العرفية، والحكم بالإعدام، والأشغال الشاقة، ورقابة القضاء على سريان الانتخابات فيها ضد تدخل أجهزة الدولة، وإنشاء مجلس قومى لحقوق الإنسان كوزارة جديدة أو هيئة مستقلة تابعة للدولة. القضية فى إعادة بناء الثقافة الوطنية من طاعة السلطان إلى الرقابة عليه، ومن تفرد الحاكم إلى تفرد المواطن. ليس المهم من يحكم فى القصر بل ما الذى يتحكّم فى العقل، وأى بنية ثقافية تسيطر عليه. ويصبح هذا الجيل علامة فارقة فى تاريخنا الحديث، جيل التحرر من القهر الداخلى وجذوره التاريخية بعد أن كان الجيل الماضى جيل الحرية والاستقلال الوطنى ضد الاستعمار الخارجى وأشكاله المتعددة منذ الاحتلال المباشر للوطن العربى والعالم الإسلامى منذ قضاء بريطانيا على إمبراطورية المغول فى الهند حتى الاحتلال الأمريكى للعراق.

إذن، لا تتأجل قضية حرية الفرد وديموقراطية الحكم بعد الآن وإلا ستظل ذريعة للعدوان الداخلى على النظام الحاكم عن طريق جماعات العنف من اليسار أو من اليمين أو للعدوان الخارجى من قوى الاستعمار الجديد من أجل ابتلاع الدولة الوطنية الضعيفة فى الداخل والتابعة فى الخارج. إن لم يأت التحول الديموقراطى طواعية من الداخل بنضال القوى الوطنية فإنه يكون ذريعة لأن يُفرض من الخارج من أجل السيطرة وإنهاء الدولة الوطنية كلها كما حدث فى العراق، ومن قبل فى أفغانستان. إن الذرائع فى الداخل لا تنتهى، مثل الانفراج الديموقراطى التدريجى، وزيادة هامش الحريات. والذرائع فى الخارج لا تنتهى، إرهاب الداخل الذى يتحول إلى إرهاب الخارج. والشعوب والأنظمة فى الداخل تبقى محاصرة بين المطرقة والسندان. وتظل الشعوب تسير فى مكانها، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء. وتتكرر دورات النهضة والسقوط، عوداً على بدء حتى يخرج هذا الجيل من الدائرة المغلقة ويعيد إلى التاريخ مساره، وينقله من مرحلة تحرير الوطن إلى تحرير المواطن.

* * *

٢- غرائب التعذيب فى سجن أبو غريب(*)

ليست القضية الموضوع، السجناء العراقيين، بل إنها الذات، المعذِّبون الأمريكيون. فللتعذيب جانبان: المعذَّب وهو من يقع عليه التعذيب، والمعذِّب وهو من يقوم بالتعذيب. والصور المنشورة أصدق تعبير عن وقائع التعذيب من جهة المعذَّب: الصلب من أجل الصعق بالتيار الكهربائى، الجر على الأرض من العنق، تكوير الأجساد بعضها فوق بعض فى كوم من لحم، سند الظهر إلى الحائط عاريا والكلب العقور ينهش فى الأعضاء التناسلية للسجين لإهانة مصدر الحياة والخصوبة والتكاثر، العدوان الجنسى على السجين من مجتمع الشذوذ. وآلاف أخرى من الصور لم تنشر بعد. ومئات أخرى من الشرائط المتحركة تصور العملية كلها وليس فقط الصور الثابتة التى تصور بعض لحظاتها.

بل إن تصوير التعذيب فى حد ذاته له دلالته. فعادة ما يتم التعذيب فى الخفاء وفى سرية كاملة. وبالرغم من وقوعه والشواهد عليه من خلال ما يتسرب من أنباء فى الداخل والخارج فإنه يتم إنكاره. فهو ليس فقط مدانًا باسم القانون، ولكنه أيضًا إهانة للإنسان، وخرق لحقوقه، وطعن فى الكرامة البشرية. وهذه المرة يتم تصوير المشاهد للتمتع بالتعذيب مرتين، الأولى برؤية السجين وهو يتعذب. والثانية بتسجيل وقائع التعذيب حتى تتم المشاهدة مرة ثانية. فالواقع أبلغ من خلال الصورة. والصورة أقوى أثرًا فى النفس من المشاهدة الحسية المباشرة. وإلا فلماذا فن الصورة بكل أنواعه، التصوير الضوئى، والتصوير السينمائى، والتصوير الزيتى، والتصوير الفنى عن طريق الصورة الذهنية قياسًا للغائب على الشاهد، وتحويلاً للواقع إلى خيال.

طالما تناولت وقائع التعذيب من خلال الضحية، وقلما تناولته من خلال الجلاد.

(*) جريدة الاتحاد: ١٢ يونيو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٩ يونيو ٢٠٠٤م.

الضحية مسلوبة الإرادة، عاجزة عن الحركة، طيّعة مستقبلة. فى حين أن الجلاد قوى الإرادة، قادر على الحركة، عصىّ على العقل والكرامة. الضحية مفعول، والجلاد فاعل. الضحية فان، والجلاد خالد. الضحية عالَم، والجلاد إله.

وقائع التعذيب فى سجن «أبو غريب» أقوى من العدوان الأمريكى على شعب العراق. فالعدوان المسلح بطريقة الغزو المباشر من أقوى دولة فى العالم على شعب من شعوب العالم الثالث ومن آخر ما صنعته آلة الحرب الأمريكية والمجمع العسكرى الصناعى أقل قوة من عدوان الجندى الأمريكى على السجين الأعزل. العدوان المسلح يكشف عن القدرة العسكرية، والتى لا تحتاج إلى برهان على قوة تدميرها بصواريخها وقنابلها وطائراتها وبوارجها ومدافعها ومركباتها. إنما الذى هو أكثر دلالة على قوة التدمير هو تعذيب السجناء أى تدمير الإنسان العراقى الأعزل من جندى فرد بلا سلاح سوى الرغبة فى امتهان الكرامة. إن القذائف التى تدمر المنازل والمصانع والمستشفيات لأقل قوة من نظرة الجندى الأمريكى للأسير وهو يُعذب بيديه وتحت رحمته. قد تكون هناك مقاومة للعدوان المسلح على شعب بالسلاح أو بالاختباء ولكن تغيب المقاومة من الجندى الأسير فى أيدى الجلاد، ضعف مطلق فى مواجهة قوة مطلقة.

قام العدوان المباشر على الأكاذيب وإيجاد الأعذار مثل تحرير شعب العراق من التسلط والطغيان. وانتهى إلى احتلال وطن، وإذلال شعب، وامتهان كرامة. كانت الذريعة تدمير أسلحة الدمار الشامل، وإسرائيل مثقلة بها، وكوريا تفتخر بها وتتحدى، والصين تعمل فى صمت، والهند وپاكستان تتنافسان فيها ليدمرا بعضهما بعضا. وروسيا تبيعها لمن يشاء من أجل الخبز. والغرب يمتلكها، وأمريكا تحتكرها. وبانت الفرية ولم يتم العثور على شىء. ونال العراق العقاب بلا جريمة وبلا شبهة بل بكذب وفرية.

ولا فرق بين حاكم العراق فى قصر صدام والمواطن العراقى فى سجن صدام. تغير الحاكم من قاهر إلى قاهر. وبقى السجين من قهر إلى قهر. على الأقل كان العراق فى الماضى يحتفظ بالأمن من الموت، والأمان من الفقر. واليوم، العراقى لا أمن له. قد يأتيه الموت فى أى لحظة. ولا أمان له من الجوع والبطالة والعرى والعراء.

كان الهدف الحقيقى تدمير العراق لصالح إسرائيل التى بدأت تخشاها منذ إطلاق

الصواريخ عليها فى حرب الخليج الثانية. كما تخشى قدراتها العلمية، ونهضتها الصناعية، واحتمال تكوين جبهة شرقية من إيران والعراق وسوريا بعد أن حيدت الجبهة الجنوبية فى مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد فى عام ١٩٧٨م، ومعاهدة السلام عام ١٩٧٩م. ثم سارت الأردن فى طريق مصر، ولديها أطول حدود مع الكيان الصهيونى.

ويعرف الجندى الأمريكى أنها حرب غير عادلة. أتى إلى العراق كى يموت وليس لكى يحرر. توابيت له ولزملائه تهبط كل يوم فى المطارات الأمريكية. ثم منعت صورها لعدم إثارة الرأى العام. وأحذيته الفارغة من أصحابها تعرض فى صفوف مرصوصة فى واشنطن أمام البيت الأبيض، تنادى على أصحابها الراقدين تحت التراب.

وهو يعلم كذب الإدارة عليه، وسيادة اليمين المحافظ عليها، وخدمتها للمشروع الصهيونى، وإسرائيل الكبرى، وتحقيق حلم الإمبراطورية الأمريكية بعد نهاية عصر الاستقطاب، واستواء القطب الواحد على عرش العالم. وهو يمين صهيونى يشارك معها فى الاختيار والعهد. فقد عقد الله مع بنى إسرائيل عهدًا وميثاقًا، يعطيهم بمقتضاه الأرض والمدينة والهيكل، ويعدهم بالنصر على الأعداء. كما أعطى التاريخ أمريكا، أرض الميعاد الجديد، ووهب الأمريكيين، شعب الله المختار الجديد، أرض أمريكا واستئصال سكانها الأصليين، وأرض العالم كله لإنشاء الإمبراطورية الجديدة، إمبراطورية السوق.

إنما المهم هو ما تكشف عنه غرائب التعذيب فى سجن «أبو غريب»، نفسية الجندى الأمريكى وشخصيته التاريخية. فبالرغم من أنه لم يفعل شيئًا دون تعليمات واضحة من رؤسائه المباشرين، وبالرغم من أن رؤساءه المباشرين لم يأمروا بتعذيب السجناء دون أوامر مباشرة من وزارة الدفاع بل والبيت الأبيض فإن متعة تنفيذ الأوامر فاقت كل حد. ولم يتم تنفيذها على استحياء وفى خجل مع تأنيب ضمير أو اعتراض كما حدث لبعض الجنود الذين رفضوا الذهاب إلى العراق أو إلى ڤيتنام أو العودة إليه. بل تم التفنن فى آليات التنفيذ، والاستمتاع بآلام السجناء، والفرح بامتهان كرامتهم، والسرور بالقضاء على إنسانيتهم، وبالتشفى فى النيل من شرفهم، إحساسًا بالغرور والتفوق،

وطلبًا للمجد الرخيص، تعويضًا عن الهزائم بالسلاح على أيدى المقاومة الوطنية العراقية. إذ يمكن القضاء على فرد، صدام، ولكن لا يمكن القضاء على شعب، شعب العراق.

ويكشف تعذيب السجين العراقى عن شخصية الجندى الأمريكى ومكوناته النفسية. فالأمريكى عدمى النزعة. يرغب فى التدمير من أجل التدمير. هكذا تربى منذ القضاء على السكان الأصليين، الهنود الحمر، لاحتلال أراضيهم، ونهب ثرواتهم، بعد القضاء على تاريخهم، وبداية تاريخ جديد للإنسانية جمعاء تبدأ بالثورة الأمريكية ولا شىء قبلها، وتنتهى بالإمبراطورية الأمريكية ولا شىء بعدها. بنى حضارته على الهدم. وأقام صرحه على التدمير. كان شعاره فى حرب فيتنام القضاء على كل شىء يتحرك. دوره فى العالم التخريب، والنخر، والحفر حتى تنهار الأبنية المغايرة من أجل التبشير بالإمبراطورية الجديدة التى تعودت على البناء بعد التدمير، وعلى الإحلال السكانى بعد استئصال الشعوب الأصلية. لا فرق بين الإمبراطورية الأمريكية والكيان الصهيونى. هى عقلية راعى البقر مع الهنود الحمر ومع الأعداء، قيادة القطيع بعد موت الغريم والاستيلاء على الثروات بعد موت أصحابها. وهى نفس عقلية الكيان الصهيونى مع الفلسطينيين، التخريب والدمار وتجريف الأرض والاغتيالات. فالفلسطينى الطيب هو الفلسطينى الميت.

ولسان حال الأمريكى يقول: أنا وحدى هو الموجود والآخرون عدم. أنا وحدى مركز العالم والآخرون أطرافه فى خدمته. هذه هى العقلية الأمريكية الصهيونية ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. لا يتصور الأمريكى أن هناك عالما آخر غير أمريكى ولا حتى أوروبى، والأولى لا الأفريقى ولا الأسيوى. فأول قنبلة ذرية ألقيت فى آسيا. بل إن المركزية الأوروبية التقليدية قد تحولت عبر الأطلنطى إلى مركزية أمريكية. الأولى تنتشر عبر البحار، والثانية عبر المحيطات. الأولى أنتجت الاستعمار التقليدى، والثانية تنتج الآن الاستعمار الجديد وبنفس الطريقة، العدوان المسلح لغزو الشعب فى العراق وأفغانستان وكما يفعل الكيان الصهيونى فى فلسطين.

وبالرغم من الحركة النسائية فى أمريكا ورفض اعتبار المرأة موضوعًا جنسيًا فإن المجندة الأمريكية نظرت إلى السجين العراقى بوصفه موضوعًا جنسيًا. تضحك وهى

تعبث بأعضائه التناسلية. وتستمتع والسجين ينتهك جنسيا بالقوة من زميل عراقى أو من مجند أمريكى. وتبلغ «الصادية» مداها عندما يتم الاستمتاع بعذاب الآخرين وآلامهم البدنية والنفسية. ضحك الأفواه ولمعات العيون عند الجلاد، وأصوات الألم وذرف الدموع عند الضحية.

ثم تأتى العنصرية الدينية بتعذيب العراقى المسلم من مجند مسيحى أو مجندة مسيحية. وتطفو الكراهية الدينية. ويظهر التعصب الدينى من حضارة طالما اتهمت غيرها من الحضارات بالعنف والتعصب والتخلف والإرهاب. وعلى السجين أن يتبرأ من هذا الإسلام الذى سبب له الكوارث، وأدى به إلى السجن والتعذيب والإهانة وغزو الأوطان. ولا خلاص له إلا بالإيمان بالسيد المسيح القادر على ما هو فيه من ضياع وموت. فلا يكفى إبادة الشعوب واستئصالها بل يضاف إلى ذلك إبادة العقائد والقضاء على الثقافات حتى يتحول العالم كله إلى عالم بلا ثقافة فيستطيع أن يتعامل معه الأمريكى على مستوى القوة المادية.

لقد كشفت غرائب التعذيب فى سجن «أبو غريب» عن المعيار المزدوج الذى تطبقه أمريكا بين الذات والآخرين. فمع الذات تطبق حقوق الإنسان ومع الآخرين تخرقها. تؤيد الكيان الصهيونى فى العدوان باسم حق الدفاع عن النفس، وتتهم الفلسطينيين بالعدوان والإرهاب وهم الذين يدافعون عن النفس والوطن. ومتى يصحو الضمير الغربى بوجه عام والأمريكى بوجه خاص على نسق من القيم لا يعرف الحدود الجغرافية للأوطان أو الفوارق البحرية للقارات أو المحددات الثقافية للحضارات؟

لقد تعود رواد النهضة العربية الأوائل مثل الطهطاوى فى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» على أن يروا العرب فى مرآة الغرب. وقد كشفت غرائب التعذيب فى سجن «أبو غريب» عن صورة الغرب فى مرآة العرب. فمن يعكس صورة من عند رواد النهضة العربية الثانية؟

***

٣- هل يسقط اليمين بعد صعوده؟(*)

إن التاريخ يسير طبقا لموجات متتالية، مرة صعودا ومرة أخرى هبوطا، مرة إلى أعلى بدفعة الهواء، ومرة إلى أسفل بتكسر الموجة ومقاومة الأرض لها. فلا توجد نهضة دائمة ولا سقوط دائم. ولا ثورة دائمة ولا ثورة مضادة مستمرة. حركة التاريخ بين مد وجزر، بين تقدم ونكوص. وهو ما يعرفه فلاسفة التاريخ.

كان هذا هو الحال فى الوطن العربى. بدأت موجات التحرر فى الخمسينيات والستينيات، واستقلت معظم شعوب العالم الثالث. واستطاعت حركات التحرر الوطنى فى عقدين من الزمان القضاء على مد تاريخى استعمارى دام عدة قرون. بدأت بروح باندونج فى عام ١٩٥٥م وانتهت بحرب أكتوبر ١٩٧٣م. وتمت صياغة مشروعات قومية للنهضة فى مصر والهند ويوغوسلافيا ودول أمريكا اللاتينية مازالت تعيش الأجيال الحاضرة على إنتاجها وبرامجها للتنمية الاقتصادية والبشرية، الإصلاح الزراعى، وتوسيع رقعة الأراضى الزراعية، والتصنيع، والقطاع العام، وتأميم الشركات الأجنبية، وتدعيم المواد الغذائية لمحدودى الدخل، ووضع سياسة للإسكان الشعبى، ومجانية التعليم، ومحو الأمية، وتذويب الفوارق بين الطبقات، ومشاركة العمال فى الأرباح، والتسيير الذاتى.

ثم انحسرت الموجة. وبدأ الجزر ابتداء من كامب ديفيد فى عام م١٩٧٨م، ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى عام ١٩٧٩م. ثم توالت الأحداث: غزو جنوب لبنان فى ١٩٨٢م، ضرب المفاعل النووى العراقى فى عام ١٩٨٤م، اغتيال أبى جهاد فى تونس، ثم احتلال كل فلسطين، ثم العدوان الأمريكى على أفغانستان ثم العراق. ومن الداخل انقلبت النظم الثورية الاشتراكية القومية على نفسها وبنفس الرجال.

(*) جريدة الاتحاد: ٧ أغسطس ٢٠٠٤م.

وتحولت إلى ثورات مضادة ونظم رأسمالية محافظة فى مصر بعد وفاة عبد الناصر، والاتحاد السوفييتى. وانهارت النظم الاشتراكية ابتداء من أوروبا الشرقية حتى مركزها فى الاتحاد السوفييتى، وبداية عالم ذى قطب واحد باسم العولمة. وتفتتت يوغوسلافيا. وحكم اليمين فى الهند، وانشغلت إفريقيا بالحروب الأهلية والأمراض والتصحر والديون الخارجية. واتحدت مصالح الإمبراطوريتين الأمريكية والإسرائيلية من أجل السيطرة على العالم. وتحالفت معهما نظم حكم يمينية فى إيطاليا وإسپانيا وأستراليا وبعض نظم تقدمية انحسرت عنها الموجة فى الفلپين وپولندا وبعض دول أمريكا اللاتينية. وتحالف المحافظون الجدد واليمين الأمريكى والمسيحية الصهيونية داخل الولايات المتحدة الأمريكية مع الصهيونية واليمين الإسرائيلى. فكلاهما من اختيار الرب تنفيذا للوعد، وتحقيقا للعهد، ومباركة الأنبياء.

وكان من الطبيعى أن تنحسر موجة التحرر فى المعسكرين، الشرقى، والغربى، وفى دول العالم الثالث. ففى المعسكر الاشتراكى تحولت الاشتراكية إلى نظام شمولى، يعطى الأولوية للكل على الجزء، وللمذهب على الفرد، وللدولة على المواطن، من بقايا الهيبة القديمة. وتقوم على تصور مادى داروينى للحياة كما ظهر فى «الداروينية الاجتماعية». وأراد أن يؤدى دور القوة العظمى فى الخارج، وأغفل الداخل. وأعطى الأولوية للصناعات الثقيلة على الصناعات الخفيفة، وللإنتاج على الاستهلاك، وللتنمية على الوفرة. وتم التحول من القيصرية الإقطاعية إلى قيصرية اشتراكية دون المرور بمرحلة ليبرالية تقوم على حرية الفرد، وديموقراطية الحكم. وفى التاريخ وتطور الشعوب لا يمكن خرق المراحل المتوسطة وإلا حدث الانكسار، وعاد القديم بعد تصدع الجديد ولم يتغير إلا الشكل دون البنية، من قيصر قديم إلى قيصر جديد، ومن قهر قديم باسم الإمبراطورية إلى قهر جديد باسم الأممية.

وانحسرت الموجة أيضا عن الغرب الذى أعطى العالم مُثُل التنوير العقلى، العلم وحقوق الإنسان، والمواطنة، والحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، والتقدم حتى بلغ الذروة فى الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر، والثورة التكنولوچية فى القرن العشرين. ثم بدأ نقد الحداثة، نقد العقل وتحطيمه لصالح اللاعقل، «وداعا أيها العقل»، ورفض المنهج والنظام لصالح العماء والفوضى «ضد المنهج» كما عبّر

«فيرآبند». وأعلن نيتشه «إن الله قد مات» وعاش الإنسان. ثم أعلن «بارت» أن الإنسان أيضا قد مات ولم يَعُدْ أحد يعيش. تحول الغرب من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، ومن التركيب إلى التفكيك، وسارت فيه روح اللاإرادية والعدمية.

وصعدت الفاشية والنازية فى النصف الأول من القرن العشرين. ثم انتهج الغرب سياسة الأحلاف فى عصر الاستقطاب أثناء الحرب الباردة، وانشغل بالتفوق العسكرى وبحرب الكواكب، والصواريخ، والصواريخ المضادة، والسلاح النووى حتى انهار المعسكر الاشتراكى دون حرب. وانفك حلف وارسو، وانضم بعض أعضائه إلى حلف شمال الأطلنطى. وتقوم العولمة الآن بوصفها حلفًا كونيًا لسيطرة مجموعة الدول الثمانى التى ورثت الشركات المتعددة الجنسيات على ثروات العالم وأسواقه وعقوله.

وانحسرت الموجة فى الدولة المستقلة الحديثة فى العالم الثالث بعد أن تحول التناقض الخارجى بين الوطن والاستعمار وبين الحرية والعدوان، وبين الاستقلال والتبعية إلى تناقض داخلى بين الدولة القاهرة والشعب المقهور. ولعب بعض زعماء التحرر الوطنى دور المستعمر القديم فى قهر الشعوب ونهب الثروات. وأصبح كثير من النظم تابعة للخارج، وقاهرة للداخل. وانقلبت المشروعات القومية على عقبيها. وتحولت إلى مشروعات مضادة للرأسمالية، والقطاع الخاص، وحرية الاستيراد، وقيم الاستهلاك، وتطبيق قانون السوق فى الربح والمنافسة، والاقتصاد الحر، ورفع الحواجز الجمركية حتى سيطر رجال الأعمال على مقاليد الحكم. واجتمعت السلطة السياسية والاقتصادية فى أقلية حاكمة كما كان الحال قبل الثورات العربية الأخيرة فى عصر الاستعمار والإقطاع والملكية.

وبدأت مظاهر انحسار اليمين فى إسپانيا. وتغيرت حكومة اليمين التى انضمت إلى قوات الغزو الأمريكى البريطانى للعراق. وجاءت حكومة اليسار، وسحبت القوات الإسپانية من العراق بعد حوادث مدريد. وتعلم الناس أن اليمين لا يجلب إلا الخراب والدمار. لا يراعى حقوق الشعوب ولا مصالحها. وقد تنقلب العدوى إلى كثير من الدول القريبة التى انضمت إلى قوات الغزو الأمريكى البريطانى مثل بلغاريا بعد أن وقعت أيضا تحت ضرورة إعادة الاختيار بين سياسة الاستمرار فى العدوان على شعب

العراق أو الانسحاب من حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، وبخاصة أن أوروبا لها مكانتها واتحادها وثقلها واستقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية. وتستطيع أن تجد الدول الأوروبية فى وحدة أوروبا ملاذًا لها وأمنًا بديلاً عن المغامرات الأمريكية، وخرق القوانين الدولية.

وحدث نفس التغيير فى الهند. وسقطت حكومة اليمين الهندى المتحالفة مع إسرائيل. وعاد حزب المؤتمر الوطنى للحكم ليعيد للهند سابق سياساتها فى العالم الثالث. وكادت أن تقع حرب نووية بين الهند وجارتها باكستان. وزاد سباق التسليح. واعتمد كل منهما على إحدى جاراتها القوية، باكستان على الصين، والهند على الاتحاد السوفييتى. وتحدث الإعلام الغربى عن القنبلة النووية «الإسلامية» وليس عن القنبلة النووية «الهندوسية» أو «اليهودية».

وفى تركيا، انتهج حزب العدالة والتنمية سياسة وطنية مستقلة، ترعى دول الجوار وبخاصة سوريا ودول المنطقة مثل مصر. وتباعدت عن إسرائيل طالما أنها ترفض الانسحاب من الأراضى الفلسطينية المحتلة، وترفض التفاوض مع السلطة الوطنية الفلسطينية، وتطبيق خارطة الطريق. وانتهى عصر اليمين التركى التقليدى المتحالف كلية مع الغرب وإسرائيل والذى لا يراعى مصالح تركيا مع دول الجوار والتاريخ المشترك. ولم يعد همها الأكبر الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى وفى دول الجوار العربى الإسلامى خير بديل عنه.

وفى أمريكا اللاتينية ما زال اليسار يقاوم فى ڤنزويلا ويتحدى اليمين المناصر لسياسات الولايات المتحدة والمطالب باللجوء إلى الشعب للاستفتاء على رئيس الجمهورية. صحيح أن چيڤارا مات ولكن صورته وخياله وشكله ما زالت فى اللاوعى الشعبى بوصفه مخلصًا قادمًا.

وبدأ التحالف لغزو العراق فى الانفضاض، بعد سحب القوات البولندية والفلبينية والنكراجوية من العراق. وتزايدت الضغوط الشعبية على حكومات التحالف من أجل سحب قواتها وبخاصة بعد اكتشاف الخديعة التى كانت وراء غزو القوات الأمريكية والبريطانية العراق بعد نشر تقرير الكونجرس الأمريكى ومجلس العموم البريطانى عن عدم امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل.

إن سياسات اليمين مضادة لحركة التاريخ وللعقل والطبيعة والإنسان. فهى سياسة عنصرية تقوم على التفوق العسكرى. تعتدى على الشعوب، وتخرق المواثيق الدولية كافة بما فى ذلك ميثاق الأمم المتحدة. وهى سياسات عنصرية تعتمد على التفوق الحضارى والاختيار الإلهى لمواجهة شعوب وثقافات العنف والإرهاب. تشرع للعدوان عن طريق ما تفرزه من مفاهيم مثل «صراع الحضارات»، «نهاية التاريخ»، «العولمة»، «ثورة الاتصالات»، «حقوق الإنسان»، «مشروع الشرق الأوسط الكبير». فقد انقضى عصر الأحلاف العسكرية، وبدأت شبكة المفاهيم والتصورات من أجل ربط ثقافات شعوب الأطراف بجدول أعمال المركز، وترك جدولها الخاص فى الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية والتنمية المستقلة والاعتماد المتبادل والتعاون الإقليمى.

وهى سياسات قصيرة المدى تقوم على وهم الخوف المباشر ودون صياغة سياسات للأمن القومى على الأمد الطويل. فقد تحالفت أستراليا مع الولايات المتحدة وبريطانيا لأنها قارة أوروبية، زرعها الاستعمار البريطانى فى جنوب شرقى آسيا. وانتهج سياسة عنصرية. وجعلها قارة بيضاء بعد استئصال السكان الأصليين. ونظرًا لقلة عدد السكان البيض واتساع مساحة القارة وعدم استغلال ثرواتها وبخاصة فى وسطها فإن الخوف من الكثافة السكانية فى جنوب شرقى آسيا وبخاصة فى الهند وإندونيسيا والصين حددت الهجرة إلا بشروط. ورأت أن السياسة الوحيدة للأمن القومى هى التحالف مع القوة الكبرى فى العالم، الولايات المتحدة الأمريكية. مع أن الأمن القومى على الأمد الطويل هو تكوين كومنولث فى جنوب شرقى آسيا، وتحويل أستراليا إلى أمريكا جديدة بفضل الهجرات وتصور «إناء الانصهار» والذى بفضله على فرض تحققه أصبحت أمريكا أقوى قوة فى العالم. ويقوم هذا الكومنولث الجديد على الثروات الطبيعية فى أستراليا، والعمالة فى جنوب شرقى آسيا، وتكنولوچيا اليابان، وأسواق الصين.

أما اليمين الإيطالى فإنه رد فعل طبيعى على انحسار موجة اليسار عن إيطاليا، اليسار الاشتراكى واليسار المسيحى، وتغطية على مظاهر الفساد والانهيار الاقتصادى بالتبعية للولايات المتحدة والانخراط فى سوق العولمة.

وكلما اعتدى اليمين على الشعوب وأشعل نار الحرب، وانتقل من عولمة السوق إلى عولمة العدوان والدمار الشامل انحسرت موجة اليمين بفضل المظاهرات بالملايين فى

عواصم الغرب ومدنه فى لندن وباريس وروما وبراج وسياتل وجنوة وفلورنسا. وتحرك العمال والطلاب والمثقفون. وانتعش اليسار القديم والجديد من أجل دفع التاريخ نحو دورة جديدة.

وتنحسر موجة الواقعية السياسية والاستسلام للأمر الواقع وكأن العولمة حتمية تاريخية والعالم ذا القطب الواحد باق إلى الأبد، وكأن لا سقف لفقر شعوب الأطراف وامتهان كرامتها والعدوان عليها.

كما ينتهى الإحساس بالعجز واللامبالاة واليأس والقنوط وأنه لا يمكن الوقوف أمام القوى العسكرية والاقتصادية والإعلامية. وتُبدع أشكال جديدة للمقاومة من أجل خلق توازن للرعب إن اختل ميزان القوى.

إن انحسار اليمين يتطلب المزيد من الصمود والمقاومة. وطالما انتصرت حركات المقاومة على القوى الكبرى كما حدث فى ڤيتنام والجزائر وكما يحدث الآن فى فلسطين والعراق. وكلما زاد العدوان اشتدت المقاومة. وكلما جرحت كرامة الشعوب واحتلت الأوطان يتراكم الغضب فى القلوب حتى يحين وقت الانفجار.

وما زالت بعض الدول الغربية مثل فرنسا وألمانيا وبلجيكا تمثل بؤرة تجمع لسياسات بديلة عن سياسات اليمين، وقادرة على انتهاج سياسات قادرة على تشجيع باقى دول العالم على التراجع عن التحالف مع اليمين الأمريكى الإسرائيلى وكما حدث أخيراً فى رفض فرنسا زيارة شارون بعد تصريحه عن المعاداة للسامية فى فرنسا، ودعوة اليهود الفرنسيين للهجرة إلى إسرائيل، الدولة الصهيونية الحامية ليهود العالم.

ما زالت بعض النظم السياسية متمسكة بالموجة العالية. تقاوم جذب الأرض لها وقوى التيارات المعاكسة فى الصين وكوبا باسم القدرة الاشتراكية وفى إيران باسم الثورة الإسلامية، وفى جنوب إفريقيا باسم الثورة الوطنية، وفى ماليزيا باسم الإرادة الوطنية المستقلة. وإذا كان السؤال هل يسقط اليمين بعد صعوده؟ بالإيجاب يظل سؤال: وهل يصعد اليسار بعد أن ظهرت بوادره؟ هل ترتفع موجة فى العقدين القادمين بعد أن انحسرت الموجة القديمة فى العقدين الأخيرين؟

* * *

٤- ما الذى يمنع من حرية التفكير؟(*)

يكاد يعانى الجميع من غياب الحريات السياسية للأفراد ومن ثم غياب الديموقراطية فى نظم الحكم. ويمكن علاج هذا الغياب بمزيد من الحريات السياسية عن طريق حرية الصحافة، وحرية تكوين الأحزاب، وحرية الانتخابات ومسئولية الحكومة أمام البرلمان واحترام الدستور.

ومع ذلك يئن الجميع من غياب الحريات الفكرية وهى الشرط الأساسى للحريات السياسية. ولا يمكن سن القوانين دفاعا عن الحرية الفكرية لأن حرية التفكير نشاط ذهنى خالص قبل التحقق فى موضوعات تخضع للتشريعات الاجتماعية. فموانع حرية التفكير داخلية قبل أن تكون خارجية، فى النفس قبل أن تكون فى الواقع، فى الضمير قبل أن تكون فى المجتمع. ويمكن إجمالها فى ستة موانع:

١- مانع النص. ولا يعنى النص النص الدينى وحده بل يعنى سلطة المدون. فقد عرفنا بأننا حضارة نص، وليست حضارة عقل، حضارة كتاب وليست حضارة طبيعة. مصدرنا الأول فى المعرفة هو القرآن أو الكتاب أو المصحف. تتلوه السنة المدونة بعد روايتها شفاهيا. تتلوها نصوص المذاهب العقائدية والفقهية وكتابات الأولين فى الطبقات والحوليات. وهى ليست خاصة بالقرآن وحده بل هى أيضا صحف إبراهيم وموسى، ومزامير داود وحكمة سليمان، والتوراة والإنجيل، والألواح والأسفار. وتقوم كلها بدور السلطة، سلطة النص الذى يطاع. فهو الذى يحدد تصورات العالم. وهو الذى يضع معايير السلوك. ويضم إليه الأمثال العامية. فهى نصوص شفاهية تقوم بنفس الدور على نحو بعدى من أجل فهم الوقائع وتسويغها، وإيجاد قوانين لحدوثها. وتقوم مقام النص فى الفهم، وإن لم تقم مقامه فى التشريع.

(*) جريدة الاتحاد: ١٤ أغسطس ٢٠٠٢م، جريدة الزمان: ٩ أغسطس ٢٠٠٤م.

والحقيقة أن النص ليس مانعًا من حرية الفكر لأن النص كتاب مسطور لا ينطق، إنما ينطق به الرجال. ويخضع للتأويل والفهم. به حقيقة ومجاز، وظاهر ومؤول. يحتاج إلى جهد إنسانى لتخصيص العموم وتطبيقه فى الزمان والمكان. يقوم النص فقط بدور الافتراض الذى يمكن التحقق من صدقه فى التجارب الإنسانية الفردية والجماعية. يقلل الجهد النظرى فى البحث عن المبادئ العامة من أجل التركيز على التفصيلات والتطبيقات العملية. ويعطى أكبر قدر من اليقين والموضوعية بدلاً من الوقوع فى النسبية والشك واختلاف وجهات النظر. كما أنه يقلل الجهد المبذول فى النص وتقصير الطريق حتى يخصص الجهد الأكبر للعمل. فقد يظل الإنسان يبحث ويطول البحث وينتهى العمر والعمل فى حاجة إلى اقتضاء فعل لم يتم الوصول إليه بعد. فكما أن حضارتنا حضارة نص فإنها أيضًا حضارة تأويل. النص يقيد «فلا اجتهاد مع النص». والتأويل يحرر، فهناك اجتهاد فى فهم النص.

٢- وقد يكون التاريخ قيدًا على حرية الفكر. فما زال الوعى لدينا متجهًا نحو الماضى ومفتوحًا عليه أكثر مما هو متجه نحو الحاضر أو نحو المستقبل. فالماضى ما زال حيًا فى الحاضر. ونتكلم عن الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكأنهم أحياء بيننا. وبالإضافة إلى تاريخ الأنبياء هناك تاريخ الصحابة والتابعين الذين ما زالوا نماذج للاقتداء. وينقل الخطباء الحاضر إلى الماضى حتى يعيش السامعون فى روعة الماضى، تعويضًا لهم عن مآسى الحاضر وهموم المستقبل. وهناك تاريخ المذاهب الفقهية وتاريخ مؤسسيها. فقد أغلق باب الاجتهاد. وأين لنا الآن من مثل مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل؟ ويضاف إليهم تاريخ الصوفية وسيرهم العطرة، الحسن البصرى ورابعة العدوية، الحسن البصرى الذى يترك وراءه بركة من الدموع وهو ساجد، ورابعة التى أحبت الله وأخلصت له دون طمع فى ثواب أو خوف من عقاب. وأين نحن من حجة الإسلام أبى حامد الغزالى، ومن إمام الحرمين الجوينى، ومن الشيخ الرئيس ابن سينا، ومن المعلم الثانى الفارابى، ومن فيلسوف الإسلام الكندى، ومن فخر الإسلام الرازى، ومن شمس الأئمة، وناصر الملة والدين إلى آخر هذه الألقاب التى أعطيت للقدماء حتى أحاطت بهم هالات التقديس ولم يصبح أمام المحدثين إلا التقليد. وسارت بيننا بعض الشائعات أن السلف لم يتركوا للخلف شيئًا. بل إن الخلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات. والعلماء طبقات. أفضلهم

الأولون، الصحابة، فالتابعون فتابعو التابعين، طبقات الصوفية، وطبقات المعتزلة، وطبقات الحنابلة. هناك أهل السنة والاستقامة فى مقابل الخوارج الذين خرجوا على الصراط المستقيم، والشيعة الذين تشيعوا ومالوا واتبعوا الأهواء، والمعتزلة الذين اعتزلوا العامود الرئيسى للمسجد. أهل السنة يقولون، والآخرون يزعمون ويدعون ويتقولون. وهناك الفرقة الناجية الواحدة، هى فرقة الدولة الأموية، فرقة السلطان فى مقابل الفرق الهالكة وهى فرق المعارضة. الأولى فى الجنة والثانية فى النار. ومن عصى الأمر وفارق الجماعة فهو كافر مرتد يجب قتله. والحقيقة أن كل هذه الأدبيات التى استقرت فى التاريخ لها ما يعارضها فى القرآن والحديث وأصول الفقه. فاختلاف الأئمة رحمة. والصواب متعدد. والكل راد والكل مردود عليه. وقد خلق البشر متعددى المشارب والمناهج والمآرب والألسنة للتعارف وللإثراء المتبادل. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولكنه جعلهم مختلفين ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. فالاختلاف غاية الخلق. وإيمان المقلد لا يجوز. والتقليد ليس مصدرًا من مصادر العلم حتى ولو كان تقليد الصحابة والأئمة والاجتهاد مصدرًا من مصادر التشريع. ويبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. والمسئولية فى النهاية فردية ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ [مريم: ٩٥]، ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ [الإسراء: ١٣].

٣- ما يمنع من حرية التفكير هو المجتمع والتقاليد والأعراف وما تربى عليه الناس من المهد إلى اللحد من اتباع التقاليد ومراعاة الأعراف وما يَعُدَّه المجتمع «عيبًا». وكل من خرج عليه فإنه ناقص التربية، قليل الأدب، وقح السلوك، منحرف الأخلاق. والناس وما تعودوا وألفوا. مع أن الأنبياء من قبل قد ثاروا ضد تقاليد وأعراف أقوامهم كما فعل إبراهيم فى نقد أبيه وقومه عن عبادة الأصنام. والتقاليد والأعراف من وضع الإنسان والمجتمع. وهى متجددة متغيرة لا تبقى على حال. لا يوجد فيها معيار للصواب والخطإ بل هى ممارسات أقرب إلى الفولكلور والعادات الشعبية. هى جزء من الثقافة الشعبية كالاحتفالات والأزياء والأطعمة والموالد والطقوس. منها ما قد يعارض الشرع ومنها ما يتفق الشرع معه. فقد أتى الشرع وقضى على عادة وأد البنات عند العرب ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وسوء معاملة

العبيد فالناس أخوة، والمؤمنون أمة، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وشرب الخمر لأنها مذهبة للعقل، وفقد للقدرة على السيطرة على الأفعال، والزنا لأنه كان فاحشة وساء سبيلا، واعتداء على الحرمات وخلط الأنساب. وأقر عادات أخرى مثل مناسك الحج وكل ما يتعلق بدين إبراهيم مثل السعى بين الصفا والمروة، والطواف حول الكعبة وصوم عاشوراء عند اليهود. بل إن اللفظ بالإضافة إلى معناه الاشتقاقى ومعناه الاصطلاحى هناك المعنى العرفى. فاللغة للاستعمال.

٤- والتعامل مع السلطة السياسية أو الدينية، مانع لحرية التفكير. فالسلطة قاهرة تفرض رأيها على الناس، وتجبرهم على تبنيها. تفرض الرقابة على أجهزة الإعلام وعلى دور النشر وعلى التدريس فى الجامعات. فالسلطة مذهبية عقائدية. تتبنى مذهبا وعلى الناس اعتناقه. والدول مذهبية منذ الدولة الأموية وتبنيها عقائد الأموية كما يسميها ابن رشد وعلى رأسها الاعتقاد بالقضاء والقدر. وتبنت الدولة الفاطمية عقائد الشيعة. واضطهدت الدولة المخالفين لها فى الرأى حتى فى المسائل النظرية الخالصة مثل خلق القرآن. وقد فرض الخلفاء الدعوة لهم على المنابر ولعنة مخالفيهم. واستمرت الدولة الأيديولوچية حتى الآن. وكان آخرها الدولة القومية الاشتراكية وفى كل الحالات هى الدولة البوليسية التى تقبض على المخالفين فى الرأى. هى الدولة التى لا تقبل المعارضة الفكرية والرأى الآخر أو المعارضة السياسية والاختيارات السياسية البديلة. وقد أدى ذلك إلى اللامبالاة السياسية وعدم اشتغال الناس بالسياسة «لعن الله ساسى ويسوس»، و«الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح». ومع ذلك يستطيع المواطن أن يعارض سياسيا عن طريق المجاهرة بالرأى فى القنوات الشرعية، ومقارعة الحجة بالحجة، والرأى بالرأى، والبرهان بالبرهان. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصل من أصول الإسلام. والدين النصيحة لأولى الأمر ولعامة الناس. وتلك وظيفة المحتسب، وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية أى الرقابة على ما يحدث فى المجتمع من فساد وغش وتدليس وليس فى ضمائر الناس.

والخوف من السلطة الدينية أيضا يمنع التفكير الحر. فالسلطة الدينية تَعُدُّ نفسها وريثة الدين، والمفسرة الوحيدة لنصوصه، والحارس عليه، والأمين على تطبيقه. ورجال

الدين بشر فى النهاية. وهم موظفون فى الدولة، ويأتمرون بأمرها. يسوِّغون للسلطان قراراته، ويشرعون له أفعاله سلما أو حربا، اشتراكية أو رأسمالية. وتستعملها السلطة السياسية للسيطرة من خلالها على الرأى العام وإضفاء الشرعية عليها إذا ما نقصتها الشرعية، وأتت بانتخابات مزيفة، واتخذت قرارات، واتبعت سياسات ضد مصالح الشعوب، وقامت ضدها الهبات الشعبية. هنا تتصدى السلطة الدينية لمطالب الناس بطاعة أولى الأمر ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فالسلطان يفهم ما لا يفهمه الشعب، ويعرف مصالحه أكثر مما يعرف الشعب مصالح نفسه. ومع ذلك قامت المعارضة باستمرار باسم حرية التفكير والاعتقاد ضد السلطة الدينية كما فعل «كونفوشيوس» فى الدين الصينى القديم، و«بوذا» فى الدين الهندوسى، والسيد المسيح فى الدين اليهودى، و«آريوس» فى الدين المسيحى، و«مارتن لوثر» مؤسس حركة الإصلاح. وكما فعل «الحلاج» و«العز بن عبد السلام» و«ابن تيمية» و«الأفغانى» و«محمد عبده» و«سيد قطب».

٥- وقد يمنع الخوف من المحافظة الشعبية التقليدية من حرية التفكير. ويظهر فكر ممالئ للناس، يدغدغ عواطفهم الدينية، وتشددهم فى الممارسة الحرفية. وسلطة الناس لا تقل رهبة عن السلطة السياسية والسلطة الدينية. هى سلطة التقليدية والمحافظة الموروثة منذ ألف عام والتى تحولت إلى ثقافة شعبية ترتكن على جانب واحد هو المحافظة. ثم أصبحت المحافظة هى الدين. وكل خروج عليها فهى ردة وكفر وإلحاد حتى فيما كان القدماء يرونه من صلب الدين مثل العقل والحرية والمصالح العامة وجمع القرآن ونقد الرواية والتأويل وحق الاختلاف وشرعيته. ولا غضاضة أن تمالئ السلطتان السياسية والدينية هذه المحافظة الدينية. فهى خير سند لهما فى السيطرة على الناس. مع أن الناس قادرة أيضا على التمييز بين الغث والسمين، بين النافع والضار، بين من يبغى الصالح العام ومن يسعى إلى مصلحة شخصية. فالخوف من العامة ليس له ما يبرره ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقد سجد سحرة فرعون لموسى لما رأوا برهانه على نبوته قبل أن يأذن لهم فرعون. والوعى الفردى له استقلاله عن الوعى الجماعى ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ

جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وطالما استطاع الخطباء والزعماء السيطرة على العامة.

٦- وأخيرا الخوف من النفس مانع من حرية التفكير. إذ يتوهم المفكر أن حرية التفكير خطر عليه ستلحق به الأذى والضرر له ولأسرته لمكانته ووظيفته وتمنعه مما يتطلع إليه من مناصب وحظوة. يخشى من الرقابة والاضطهاد فيضع رقابة على رقابة، واضطهاداً فوق اضطهاد حتى يفقد الصدق في القول والتعبير. ويصبح الكلام خطابا أجوف بلا معنى أو قصد: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ومن ثم كانت البداية في حرية التفكير نزع الخوف من النفس، والثقة بها، والصدق في القول والتعبير ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]. فمتى تزيل الأمة عن نفسها موانع حرية التفكير؟

* * *

٥- المواطـــن المشبـوه(*)

علاقة المواطن بالدولة هى إحدى علامات النهضة. تسوء العلاقة إذا عادت الدولة المواطن لأنه ينازعها سلطانها، ويتحدى سلطتها فيحدث رد فعل عند المواطن بعدائه للدولة لأنها لا تعبر عن مصالحه، ولا تمثل هويته، ولا هى سلطة منتخبة انتخابًا حرًا بإرادته. صورة المواطن فى ذهن الدولة أنه عدوها، وصورة الدولة فى ذهن المواطن أيضًا أنها عدوته. وهنا ينشأ عدم الولاء المزدوج بين المواطن والدولة. فتبحث الدولة عن أحلاف خارجية ضد المواطن، كما يبحث المواطن عن ولاءات خارجية ضد الدولة. فيتحول العدو الخارجى إلى صديق للدولة كما هو الحال فى علاقتنا بالولايات المتحدة الأمريكية وعند البعض وإسرائيل أيضًا. ويعبر المواطن عن ولائه لدول أخرى خارج الدولة ـ الوطن إلى القوم ـ الوطن أو إلى الأمة ـ الوطن أو إلى الإنسانية ـ الوطن.

وينعكس ذلك فى وقوع الضرر المتبادل بين المواطن والدولة. إذ تسن الدولة عدة تشريعات ضد المواطن مثل إعلان الأحكام العرفية، وقوانين الطوارئ، وكل القوانين المقيدة للحريات مثل قانون العيب، وقانون الاشتباه، والقوانين الاستثنائية. وكلها تقوم على التحريم والمنع والتقييد. فأصبحت صورة الدولة هى «الممنوع»، «ممنوع الاقتراب والتصوير». وينتج عن ذلك عدم ولاء المواطن للدولة، وعدم طاعة قوانينها، ويضع آليات للتحايل عليها لتحقيق مصالحه بالرشوة والتملق والمداهنة وكل مظاهر الفساد من أجل التكيف الاجتماعى وتحقيق المصالح التى أصبحت لا تتم إلا بعصيان القانون. فتحولت القوانين إلى صورية خالصة. فتحت يافطة «ممنوع الوقوف قطعيًا» تصطف عشرات العربات. كما ينتهز المواطن الفرصة لإلحاق الضرر بالدولة

(*) جريدة الاتحاد: ٢٨ أغسطس ٢٠٠٤م.

وبالممتلكات العامة، قطع كراسى قطار أو رميه بالحجارة فى الريف أو خدش العربات العامة أو سرقة الممتلكات العامة أو إتلاف المكاتب أو العبث بالحدائق العامة. فأصبح العام مكانًا لتفريغ شحنات الغضب عند المواطن. فالدولة فى ذهن المواطن هى الشرطى. والمواطن فى ذهن الدولة هو العاق أو الخائن أو العميل.

إذا تحرك المواطن ونشط ثقافيًا أو سياسيًا، واشتغل بالعمل العام، وناضل فى سبيل وطن أفضل ونظام سياسى يعبر عنه ويحقق مصالح الناس فإنه يكون مشبوهًا مدفوعًا بقوى خارجية وعضوًا فى تنظيم سرى لقلب نظام الحكم. فلا تنشأ مظاهرة إلا بفعل «المندسين» العملاء، أما جسم الأمة فصحيح. لم ينجرف بفعل هذه الفئة المنحرفة الضالة. وكيف للخارج أن يحرك الداخل؟ وكيف لهذه الحفنة المعدودة من الشباب أن يسببوا كل هذا القلق للدولة بجيشها وشرطتها وقوات أمنها؟

فإذا تظاهر الإسلامى لأن الإسلام لا يرضى نظامًا سياسيًا تابعا للخارج وقاهرًا للداخل «إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» فإنه عميل إيران أو أفغانستان أو الطالبان أو أسامة بن لادن أو الإخوان أو الجماعات الإسلامية المتعددة السرية أو العلنية مثل جماعة الجهاد. هو عميل للتنظيمات الإسلامية العالمية فى لندن تحت غطاء مساعدة المسلمين فى البوسنة أو الهرسك أو أفغانستان أو كشمير أو الشيشان.

وإذا تظاهر ناصرى قومى عربى مازال يؤمن بالقومية العربية من ريح الخمسينيات والستينيات، ويرى مخاطر القطرية، وعزلة مصر، وتشتت العرب وتمزقهم لابتلاعهم قطعة قطعة كما تم أول مرة بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م وهزيمة دولة الخلافة ثم القضاء عليها كلية بعد الثورة الكمالية فى ١٩٢٣م فإنه بعثى قومى سورى عراقى، ولاؤه للقومية العربية وليس لمصر، وكأن مصر قطر معزول عن محيطها العربى وشعبها العربى. وإذا تظاهر ماركسى ضد غلاء الأسعار والفساد دفاعًا عن الفقراء والطبقات المحرومة فإنه شيوعى روسى أحمر، ولاؤه للأممية أو عميل لها، وخائن للوطن. وإذا تظاهر ليبرالى دفاعًا عن الحرية والديموقراطية ضد صنوف القهر وتزييف الانتخابات والقوانين الاستثنائية والأحكام العرفية وسيطرة الدولة على أجهزة الإعلام وعدم تمثيل القوى السياسية فى المجالس الدستورية، واستثناء الحزب الحاكم

بالسلطة والثروة، فإنه وفدى إقطاعى من أنصار العهد البائد، راغب فى العودة إلى الحكم، ومعاد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وضد مكاسب العمال والفلاحين الذين يمثلون نصف مقاعد مجلس الشعب. فكل ناشط سياسى هو إما عميل أو خائن أو موتور أو حاقد. به كل الأوصاف والنعوت إلا أنه وطنى، ولاؤه للوطن. والوطن ليس هو النظام السياسى. إنما نقد النظام السياسى هو الولاء للوطن. النظام فان، والوطن خالد.

بل إن المظاهرات من أجل المطالب المهنية والفئوية وتحسين الأوضاع الوظيفية والمعيشية فى مؤسسات الدولة أو فى منظمات المجتمع المدنى غير مسموح بها. فإنها تثير الشغب الاجتماعى. ويخشى أن تنقلب إلى تخريب المنشآت العامة بفعل المندسين. وهى لا تطالب بأكثر من فرص للعمل أو تحسين المرتبات أو ظروف الدراسة أو الاعتراف بالشهادات. أما الهبات الشعبية العامة من أجل الخبز وضد غلاء الأسعار كما حدث فى يناير ١٩٧٧ فإنها انتفاضة «حرامية» مع أنها لم تثر إلا ضد مظاهر الفساد: علب الليل، ومراكز الشرطة التى يُعَذَّب فيها المواطن، وصحف النظام التى تروّج للكذب، ووسائل المواصلات العامة، الفتات الذى تقدمه الدولة لحشر المواطنين فيها وهم فى الطريق إلى أعمالهم. ومظاهرات الأمن المركزى فى ١٩٨٦م فإنها أيضًا عصيان ضد النظام والأمن. وكان مرتب أمين الشرطة لا يتجاوز الخمسة جنيهات يحرس الفنادق الضخمة حول آثار مصر ويرى مظاهر البذخ فى الطعام والشراب من وراء الزجاج. الدولة مقدسة لا يمكن المساس بهيبتها. والنظام السياسى هو ظل الله فى الأرض لا يمكن الخروج عليه. والمواطن به مس من الشيطان.

بل إن النظام السياسى لا يقبل أن يتظاهر المواطن حتى تدعيمًا لسياسة الدولة؛ لأن الدولة هى التى تقرر دون الشعب. ولا تريد أن يكون الشعب صاحب قراره حتى لا يتعود على هذه الرذيلة وهو أخذ زمام المبادرة فتفقد الدولة سلطانها. فإذا تظاهر المواطن ضد الغزو الأمريكى البريطانى للعراق كما حدث ليلة ٢٠ مارس ٢٠٠٣م وخرجت الآلاف إلى الشوارع من النشطين السياسيين من كل التيارات السياسية فى البلاد، إسلاميين وناصريين وقوميين وماركسيين وليبراليين وحولهم جموع الشعب تباركهم وتؤيدهم وتعطيهم الماء والغذاء للاستمرار فى الاعتصام فى الميادين العامة

تحاصرهم الشرطة ويقبض عليهم الأمن لعدم إحراج النظام «العين بصيرة، واليد قصيرة» و«حكم القوى على الضعيف» و«ما فيش قوى إلا هناك الأقوى منه»، تفريطًا فى الاستقلال الوطنى للشعوب، وتخليًا عن الدفاع عن الأمة العربية، واستسلامًا لمنطق القوة وشريعة الغاب. وإذا تظاهر المواطن ضد العدوان الإسرائيلى على شعب فلسطين وتجريف الأراضى، وتدمير المنازل، والتصفيات الجسدية، والاغتيالات لقادة المقاومة، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ فإنه مغامر يريد إعادة إسرائيل لاحتلال سيناء، وأن يزج بمصر فى حرب غير محسوبة العواقب. ومن يستطيع مقاومة الولايات المتحدة الأمريكية التى تقف وراء إسرائيل؟ «الكلام بتاع زمان» هو الذى أدى إلى هزائم مصر فى حروب ١٩٤٨، وعدوان ١٩٥٦، ثم هزيمة ١٩٦٧ والتى مازالت نتائجها باقية فى احتلال فلسطين، وهضبة الجولان، ومزارع شبعا. ومن البنود السرية فى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩ الكف عن معاداة إسرائيل بالكتابة أو الدعاية أو المظاهرات. مع أن سياسات الدولة المعلنة رسميًا هى رفض العدوان الأمريكى البريطانى على شعب العراق، ورفض العدوان الإسرائيلى على شعب فلسطين. والدولة هى التى تحكم وتقرر وما على المواطن إلا الطاعة والولاء.

فإذا ما تخرج الطالب من الجامعة وانغمس فى خضم الحياة سعيًا وراء لقمة العيش، وكدًا فى البحث عن وظيفة وسكن وزوجة أو هجرة إلى بلاد النفط أو إلى بلاد الوفرة، ونسى النشاط السياسى العام الذى أصبح من ذكريات الشباب وأيام الصبا التى لن تعود، وإذا تاب عن العمل لأنه أدرك أنه لا فائدة، فالقهر للداخل والتبعية للخارج فى ازدياد يومًا بعد يوم، أو إذا مات وانقطعت أخباره عن آذان وعيون أجهزة الأمن التى تضم الملفات والسجلات، وما فيها لا يمحى كما هو الحال فى اللوح المحفوظ فإنه يظل مشبوهًا، يُستدعى إلى الأمن العام ليُسئل لماذا توقف عن النشاط؟ هل ترك العمل العلنى للانخراط فى العمل السرى؟ هل يدبر مؤامرة أكبر وعلى صلة بجهات أجنبية أقوى؟ فالمواطن مشبوه مشبوه، نشط أم لم ينشط، عمل بالشأن العام أم لم يعمل. هو متهم أمام أجهزة الأمن فى حركاته وسكناته، فى نشاطه وفى عزلته، فى أمله ويأسه، فى فرحه وحزنه، فى انبساطه وقبضه، فى صراخه وصمته، فى كلامه وسكوته بل فى حياته ومماته. هو مشبوه فى كل الحالات، ومتهم فى كل الاحتمالات. فالدولة تعلم

مدى تبعيتها للخارج، وقهرها للداخل وفسادها. وتعلم أجهزة الأمن أن الحق مع المواطن، ولكنها تعمل للحفاظ على النظام ضد كل من يحاول تغييره أو النيل منه.

وطالما أن هناك عداءً متبادلاً بين الدولة والمواطن فلا أمل فى الإصلاح. هَمّ الدولة المحافظة على النظام، وليس رعاية مصالح الناس، وهَمّ المواطن فى الخلاص من نظام القهر والفساد، وليس فى الدفاع عن نظام لا يعبر عنه. الانتخابات مزيفة. والحزب الحاكم بتدخل أجهزة الدولة، يحصد معظم المقاعد، والقادة، وزراء ورؤساء باقون فى السلطة ماداموا طويلى العمر. فلا تداول فى السلطة إلا كى يحل أمير محل أمير. «مات الملك يحيا الملك»! وتتكاثر الشعارات لكل حكومة جديدة. فكما رفع شعار «إلكترون فى يد كل جندى» بعد حرب أكتوبر، وكما أطلق شعار «فيلا وعربة لكل مواطن» بعد عصر الانفتاح، يقال الآن «كمبيوتر لكل مواطن». فمتى يرفع شعار «سكن لكل مواطن»، «رغيف خبز لكل مواطن»، «حرية لكل مواطن»؟

***

٦- ستالينجراد العرب(*)

يشعر المفكر العربى ببعض الخزى والعار أمام نفسه أولاً، وأمام مجتمعه ثانيًا، وأمام التاريخ ثالثًا، أمام ما يحدث فى حياته وفى عصره مما يحدث فى الفلوجة «ستالينجراد العرب». يبدو أنه تعود على الصمت على الدماء التى تسيل حوله كل يوم فى فلسطين والعراق. وتحول الصمت من موقف استثنائى إلى سلوك دائم بل ورؤية للعالم. فخرجنا عن التاريخ، ولم نعد نؤثر فى مساره. وتبلدت الحواس. وعوضنا عن ذلك بالمسلسلات التلفزيونية، نتعاطف مع أبطالها، ونتفاعل مع مواقفها، وننتظرها وكأنها هى الحدث الرئيسى فى حياة الناس. فتحولت الحياة إلى تمثيل، وأصبح التمثيل هو الحياة. الحاكم يمثل، والمحكوم يتفرج.

وشرف الكاتب هو الشهادة على العصر. ومداد العلماء لا يقل شهادة عن دماء الشهداء. والشهادة ليست فقط أول قاعدة فى الإيمان بل هى أول فعل فى الأمانة والنزاهة والإخلاص والشجاعة. والشهيد ليس فقط من يضحى بحياته فى سبيل الحق بل هو الشاهد أيضًا على هذا الحق. فالعمل قول، والقول عمل، ضد الصمت والتهميش، والعجز والإحباط، والتبلد واللامبالاة، وكأن ما يحدث حولنا لا يعنينا فى شىء.

والشهادة على العصر تتجاوز المواقف السياسية ونظم الحكم والأوضاع الدولية. هى شهادة الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين والشعراء. يسجلون للتاريخ أوضاع عصرهم. ويدونون للخلَف أحزان السلف. وشهادة أهل البيت أفضل من شهادة الغير عليهم. فأهل مكة أدرى بشعابها. وقد تظلم شهادة الآخر. وفى كلتا الحالتين ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً**

(*) جريدة الاتحاد: ٤ ديسمبر ٢٠٠٤م.

عِندَهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]. وكيف يكون إعلامنا أقل شهادة من الإعلام الغربى؟ ربما لأن إعلامنا تابع لسياسات نظم الحكم فى حين أن الإعلام الغربى حر عن سياسة دوله. فالحرية حق طبيعى للإنسان، و«الساكت عن الحق شيطان أخرس».

لم يستطع العراق الدفاع عن نفسه فى حرب الجبهات ضد العدوان الأمريكى عليه. واختفى الجيش أثناء سقوط بغداد. وتحول بعدته وعتاده إلى الشعب. ثم بدأت المقاومة بحرب العصابات عندما لا تتكافأ القوى بين المعتدى والمعتدى عليه. ثم تحولت حرب العصابات إلى حرب المدن. فيما يطلق عليه المثلث السنى. ثم تحولت حرب المدن بعد العدوان على الفلوجة إلى حرب الشوارع وقتال الأزقة حيث يتفوق فيه الضحية على الجلاد.

وتعاطف الوجدان الشعبى مع المقاومة بما لديه من ثقافة موروثة تعتز بالجهاد، ومقاومة العدوان: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وظهرت بوارق أمل فى فلسطين والعراق ممثلة فى مقاومة العدوان الأمريكى على العراق، والعدوان الصهيونى على فلسطين، وفى أفغانستان وفى الشيشان وفى كشمير، رد فعل على العجز العربى. والآن تمثل الفلوجة مع قطاع غزة فداء للجميع كما أفدى السيد المسيح أخطاء البشر.

فى الثقافة الشعبية وعند جمهور علماء الأمة لا يجوز مساعدة المعتدى على العدوان ولا أن يعتدى الأخ على أخيه. ومن ثم لا يجوز مساعدة الجيش العراقى الجديد القوات الأمريكية على العدوان على المدن العراقية وقتل المجاهدين. فالمظاهرة أى تأييد العدوان لا تجوز شرعًا: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: ٨٥]. بل إن الحكومة العراقية ليست منتخبة من الناس بل تم تعيينها طبقًا لاختيار الأمريكيين لها. وهو المتعامل من قبل مع الإدارة الأمريكية والمخابرات المركزية. والقانون الدولى لا يعترف بشرعية الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق الذى تم ضد رغبة المجتمع الدولى، وخرقًا لميثاق الأمم المتحدة، وتحت ذريعة اتضح كذبها، وتحقيقًا لأهداف إسرائيل فى المنطقة بالقضاء على الجبهة الشرقية والعمق الاستراتيجى العربى، وتدمير سلاح عربى لإضعاف المواجهة مع الكيان الصهيونى. فالدم العراقى المراق هو مسئوليتنا أولاً، مسئولية الحكومة العراقية التى

تعطى التغطية الشرعية للعدوان الأمريكى، ومسئولية فريق من الجيش العراقى الجديد الذى رفض بعض أفراده قتل الأخ لأخيه، والمواطن للمواطن، ومسئولية العرب والمسلمين الذين لا يقفون بجوار المعتدى عليه. بل ويؤيد بعضهم منهم علنًا أم سرًا العدوان على العراق أخذًا بالثأر لعدوان العراق عليه.

مازال القتال دائرًا فى ستالينجراد العرب فى الوسط وعلى الأطراف. ولم تخضع المدينة بعد لقوات العدوان. مازال القتال دائرًا من بيت لبيت، ومن زقاق لزقاق. وتضرب قوات العدوان حصارًا كاملاً على أنباء القتال. ولا تعطى الأخبار إلا من وجهة نظرها، كذبًا وبهتانًا بالنسبة للسيطرة الكاملة على المدينة، وعدد القتلى من قوات العدوان، والشهداء والأسرى من المقاومة. والمدنيون هم الضحايا. والعالم صامت بعد أن علا الصراخ على المدنيين فى دارفور، وعلى التهديد بالتدخل فى السودان لحماية المدنيين، والصمت على ما يحدث فى الفلوجة بدعوى القضاء على الإرهاب فى حين أن مقاومة المحتل واجب شرعى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وهو ما ينطبق على شعب العراق، وشعب فلسطين، وشعب أفغانستان، وشعب الشيشان، وشعب كشمير. وجثث الشهداء تملأ الشوارع وترمى فى النهر، وأنصار حقوق الإنسان صامتون. وتمنع منظمات الإغاثة المحلية والدولية من دخول المدينة المعتدى عليها لمساعدة المدنيين، الأطفال والنساء والشيوخ.

وإذا ما تم إخضاع ستالينجراد العرب فإن المدن الأخرى تستعد، الرمادى والحلة وبعقوبة. بل ويتجاوز الأمر إلى مدن الشمال، الموصل والسليمانية وإلى مدن الجنوب فى البصرة. فالعراق وطن واحد. لا فرق فيه بين سنة فى الوسط، وشيعة فى الجنوب، وأكراد فى الشمال. وإنه لعتاب تاريخى على المواطنين فى العراق من ترك مدن المثلث السنى تقوم وحدها بواجب التحرير. صحيح أن الشيعة انتفضوا بمفردهم فى الجنوب أثناء الغزو الأمريكى الأول على العراق. وقمع النظام العراقى الانتفاضة، ولم يناصرهم إخوانهم فى العراق، فى الوسط أو الشمال. ولم يناصرهم الغربيون والأمريكيون بالرغم من كثرة حديثهم عن حريات شعب العراق، وطغيان حاكم العراق. ومع ذلك لا يدفع الإخوة الشيعة فى العراق الثأر من حاكم العراق إلى القضاء

على النظام حتى ولو تم بأيدى الأمريكيين المعتدين. فهم عراقيون أولاً، شيعة ثانيا. كما أن أهالى الفلوجة، عراقيون أولاً، سنة ثانيًا. وأهل الشمال، عراقيون أولاً، وأكراد ثانيا. بل إن العراقيين فى الشمال مازالوا صامتين وكأن العدوان على العراق واحتلاله ليس اعتداء على الوطن الذى ينتمون إليه. ويظنون أن أمريكا ستساعدهم على تلبية مطالبهم القومية فى الاستقلال عن الوطن الأم فى حالة غياب الدولة فى العراق. وهو ما لن تقبله دول الجوار فى تركيا وسوريا وإيران وروسيا. فلا حماية لأكراد العراق إلا باستقلال العراق الوطن الأم، ثم نيل استقلال ذاتى محلى داخل العراق الموحد. فلا يوجد مستقبل للشمال والجنوب إلا داخل الوطن الموحد. ومن ثم فإن إلقاء العبء على الوسط لمقاومة المحتل وللمثلث السنى وحده بحرب الشوارع والمدن تغليب للطائفة والعرق على الوطن.

إن أخطر ما يهدد العرب ليس فقط احتلال ستالينجراد العرب وغيرها من مدن العراق المحتل للقضاء على المقاومة بل هو استهانتنا على أنفسنا، وترك مدينة وحدها للاستشهاد. ثم يستهين العدو بنا، يأخذ مدننا ثم شعوبنا وأوطاننا فرادى، الواحد تلو الآخر. ثم يتجرأ العدو علينا مادام استتب الأمر فى العراق. ويمتد إلى سوريا والسودان وإيران وإلى كل من يعترض على نظام الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الجديد مادامت القوة تجدى معنا نفعًا، ومادمنا عبيدًا، ولا يشترى العبد إلا والعصا معه. فالعصر عصر الهيمنة، والعصر عصر العولمة. فمتى يقول العرب ما قالوه من قبل فى غزوات الرسول «اليوم يوم الملحمة»، «اليوم يوم المكرمة». وهل نسى العرب أنهم قضوا فى عقدين من الزمان فى حركات التحرر الوطنى على استعمار دام فى أراضيهم عدة قرون؟

* * *

٧- حرية الفنان، وتقليدية المتلقى(*)

انتشر خبر مقتل السينمائى الهولندى «فان جوخ» المعاصر على يد أحد المسلمين الغاضبين لأنه أخرج فيلمًا غاضبًا عن المرأة فى الإسلام، يكرر فيه ما قيل عشرات المرات فى الموضوع من مستشرقين غربيين بل ومن بعض المفكرين والكتاب العرب والمسلمين. فهذه ليست أول مرة يتعرض الإعلام والفن فى الغرب لهذا الموضوع. بل إن الغرب وضعه بندًا فى مشروع «الشرق الأوسط الكبير» وسماه «الجندر». وموّل معظم بحوث المرأة فى الوطن العربى. وأفسح فى إعلامه للنساء الكاتبات اللاتى ينقدن وضع المرأة العربية والاسلامية فى الثقافة والمجتمع والتاريخ. وأيدت الحركات النسوية. وهى قضية داخلية أيضًا عرضها الإصلاحيون فيما يسمى الآن بقانون الأحوال الشخصية فيما يتعلق بشروط الطلاق، وتعدد الزوجات، والحضانة، والجنسية. بل تساءل البعض عن قضايا الشهادة والميراث والحجاب بعد أن نالت المرأة حقها فى التعليم والعمل والمشاركة الاجتماعية والسياسية. وهى قضايا اجتهد فيها بعض القدماء. وتابعهم بعض المحدثين. فقد تغير الواقع، وتوقف الاجتهاد. فنشأت الأزمة. والغرب ينتظر التجريح والتشويه طعنا فى الثقافة ليسوِّغ عدوانه علينا، والتدخل فى شئوننا باسم الدفاع عن حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل، وحقوق الأقليات، وحرية الأديان.

لقد تعود الغرب على الفن الملتزم، وتأكيد دور الفن فى قضايا التغير الاجتماعى. فالفن للحياة. وهى المدرسة التى اعتززنا بها فى فننا وأدبنا الحديث. كما تعود الغرب على حرية التعبير بوصفها حقا من حقوق الإنسان الطبيعى، حرية التفكير أولاً ثم حرية التعبير ثانيًا. وقام بأكبر نقد اجتماعى وفنى وسياسى لماضيه وحاضره. بل نقد تراثه

(*) جريدة الاتحاد: ١٨ ديسمبر ٢٠٠٤م.

ودينه، وسخر من عقائده ورموزه الدينية. وأخرج الأفلام عن السيد المسيح مثل «يسوع المسيح سوبر ستار» يجعله من المغنين الجدد «الهيبيز»، عاشقا للحياة، وأحب مريم المجدلية. كما نقد ديدرو فى «الراهبة» حياة الرهبنة التى لا تتفق مع الإحساس مع الحياة. بل لقد وضع الغرب أسطورة أنه وحده حضارة النقد والرفض فى حين أن حضارات الغير هى حضارة التسليم والتسويغ.

والمتلقى عندنا تقليدى. مازال يحرم التصوير، وعرض الأنبياء بل والصحابة موضوعات للفن فى التصوير أو السينما. فلا يجوز التشخيص. بل إن البعض مازال متأثرا ببعض فتاوى القدماء فى تحريم الفن عمومًا، الموسيقى والغناء، والتصوير خصوصًا. ومازالت الاتجاهات المحافظة ترفض أى اجتهاد جديد يُضاف إلى اجتهاد القدماء. فباب الاجتهاد قد أغلق، ولم يترك السلف للخلف شيئًا، وليس فى الإمكان أبدع مما كان. ولم نتحمل رواية مثل «الآيات الشيطانية» لأديب مغمور جعلناه مشهورًا بفتوى قتله لأنه طعن فى الأنبياء والصحابة وآل البيت. وكانت انتفاضة الحجارة فى ذروتها. فخسرنا باليمين ما كسبناه باليسار، خطوة إلى الإمام وخطوتان إلى الخلف. وما كان يعمل له المصلحون باستمرار دفاعًا عن الإسلام، حضارة، وثقافة، وحرية، واحترامًا للغير، خسرناه فى غمضة عين. وأكدنا الصورة المشبوهة للإسلام فى أجهزة الإعلام الغربية عن تخلفنا، وأننا ضد الرأى الآخر وحرية الرأى. وأصبح الغرب هو الحامى لقيمنا التى عليها أقمنا الحضارة الإسلامية فى دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان والزيتونة والقرويين والأندلس وسمرقند وطشقند وبخارى. وهاجر المفكرون والمبدعون من الوطن العربى والعالم الإسلامى خارج الأوطان. وتركوا مصر وسوريا وبنجالادش وباكستان وإيران بحثًا عن حرية التفكير والتعبير فى الغرب. فالغرب يفكر ونحن نكفّر. فكيف نفكر فى زمن التكفير؟ ووضعنا الحراس على أبواب مفكرينا وأدبائنا خشية من اغتيال المتعصبين المتشددين.

ولم تكن هذه سنة القدماء بل كان طريقهم هو الحوار والنقاش والرد كما فعل أئمة أهل السنة مثل ابن تيمية فى «الرد على المنطقيين» و«نقض المنطق» و«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، والرد على الشيعة والقدرية. وكما فعل الغزالى فى «الرد الجميل على من بدل التوراة والإنجيل»، والباقلانى فى «التمهيد فى الرد على المعطلة

والجهمية»، وابن الراوندى فى «الرد على ابن الراوندى الملحد» وغيرها من الردود. بل امتد التقليد إلى الشعراء فى مناقضات جرير والفرزدق. وأصبح الخلاف عند الأصوليين موضوع علم مستقل هو علم الخلافيات، وعلم التعارض والتراجيح. وانتهوا إلى أن الحق متعدد، وكل الآراء صائبة، «للمخطئ أجر وللمصيب أجران». صحيح أن تاريخنا أيضًا مملوء بالغضب: ذبح الجعد بن درهم، وتقطيع ابن المقفع، وصلب الحلاج، وقتل السهروردى، وشنق سيد قطب وغيرهم من الشهداء إلا أن الغاية كانت سياسية خالصة. فقد كان الجعد بن درهم من أوائل المعتزلة الذين عارضوا الحكم الأموى، وابن المقفع من الذين طالبوا بمساواة العجم بالعرب، والحلاج لأنه شارك فى وقاد ثورة القرامطة، والسهروردى لأن صلاح الدين كان يخشى على النضال ضد الصليبيين من محبة الصوفية التى قد تدفعهم إلى موالاة الأعداء.

وصحيح أيضًا أن الغرب سقط منه شهداء الفكر. فقد أجبر سقراط على شرب السم لاتهامه بالسخرية من آلهة اليونان وإفساد أخلاق الشباب. وحكم على كثير من المعارضين للسيطرة الكنسية الرومانية فى عصر الآباء على حرية الاعتقاد بالهرطقة والكفر. وحرق «أمورى البينى» لأنه كان يقول بوحدة الوجود. واستشهد كثير من المفكرين الأحرار فى عصر النهضة، «توماس مور» لأنه تصور مدينة فاضلة خالية من الظلم والقهر، و«جيوردانو برونو» لأنه دافع عن مركزية الشمس ودوران الأرض حولها. وكانت المقصلة مصير كل المعارضين فى الثورة الفرنسية فى عصر الإرهاب مثل ميرابو ودانتون وغيرهم. وطُعن اسبينوزا بالسكين لأنه أنكر العهد الخاص بين الله وبنى إسرائيل مدافعا عن ميثاق أخلاقى عام للبشر جميعا، ميثاق الطاعة والتقوى والعمل الصالح. ثم تغير الغرب فى عصوره الحديثة بعد إعلان حقوق الإنسان وإن كان مازال يخترق حقوق الشعوب.

إن خطورة الوضع فى هولندا هو العنف والعنف المضاد: قتل المخرج السينمائى كفعل وحرق المدرسة الإسلامية كرد فعل، وتضييق الدولة الخناق حول حريات المسلمين وإقامتهم والهجرة إليها بعد أن بلغوا المليون ووصلوا إلى أعلى المناصب. ويأتى الفيلم فى هولندا بعد الحجاب فى فرنسا، والبقية تأتى. واليمين الأوروبى فى تصاعد. والمحافظة الجديدة فى أمريكا كسبت الرهان. والعداء للإسلام والمسلمين

مازال مستمرا منذ حوادث واشنطن ونيويورك منذ ثلاثة أعوام. و«صراع الحضارات» مازال يعطى الضوء الأخضر للخلاص من حضارات التخلف والعنف وكراهية الآخر، ورفض الحداثة. وقد تكون الغاية القصوى الخلاص من الإسلام والمسلمين فى الغرب بعد أن أصبح الإسلام الدين الثانى فى أوروبا بعد المسيحية، والدين الثالث فى أمريكا بعد اليهودية. والكل يخشى أن تصبح أوروبا الغربية بعد أوروبا الشرقية وروسيا بل وإسرائيل دولا إسلامية فى غضون قرن من الزمان، أقل أو أكثر. فمن الآن يأتى الاضطهاد، وتخرج الدعوات لطرد المهاجرين بعد الحد من الهجرات. بين المسلمين والغرب مسافة زمنية تبلغ خمسة قرون. فالغرب فى آخر عصوره الحديثة، ونحن فى بداية عصورنا الحديثة. ومازلنا نحاول إنهاء عصورنا الوسيطة، القهر والتسلط، كما أغلق الغرب عصوره الوسطى ومحاكم التفتيش. ومن ثم لزم الإسراع فى العبور التاريخى، وفك حصار الزمن حتى ننعم بالحرية فى الداخل والخارج. ولا يوجد حل للعنف المتبادل إلا الفهم المتبادل، ووضع كل طرف فى إطاره الزمنى ومرحلته التاريخية، ثم فك حصار الزمن واللحاق بمسار التاريخ.

هذه محاولة لفهم ما حدث وليس تسويغا له. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابًا.

* * *